العدالة في رسائل النور
المنزلة و الأثر

أ.د. عمار جيدل
جامعة الجزائر/الجزائر

ارتبط ذِكرُ العدالة، عنوانا أو اسما لفكرة، في الضمير الجماعي والمجتمعي للمجتمعات البشرية بالمسألة السياسية أو الاجتماعية، فهي الألصق بأدبيات النضال الاجتماعي و الاقتصادي، وخاصة في الحركات النقابية، كما كانت عنوانا للمطالبة بعالم أكثر إنسانية من حيث مستويات المعشية وخاصة في ظل الظلم الذي يهيمن على العالم في كلّ مجالات الحياة، فهو ظلم قابل للمعاينة في مختلف شعاب الحياة، بيّن ظاهر في المسألة الاقتصادية و الاجتماعية فضلا عن المسألة الثقافية والتربوية، بل يكاد يطبع كلّ مكوّنات المشهد انتهاء بالعلاقات الدولية والعلاقات بين الحضارات وفضلا عن العلاقات بين الأديان.

في ظل الظروف المشار إليها، كان مطلب العدالة عنوان الصراع في الحياة اليومية للمجتمعات البشرية، أو على الأقل تشي بالصراع الطبقي أو الاجتماعي؛ فهل كان عرض الفكرة في رسائل النور مستصحبا لهذا المعطى متلبّسا به؟ أم كان وفق مسلك آخر أوسع من أن يقصر النظر على المسألة الاجتماعية، والتي تعد مظهرا من مظاهر عدالة فكرة.

يتعيّن لعرض مجمل التفاصيل المشار إليها في تمهيد الورقة، استهلال الورقة ببيان "موقع العدالة في رسائل النور"، ثم الانتقال إلى بيان "وقع العرض على الرسائل و المتلقين لها".

أولا: مسألة موقع العدالة في رسائل النور و مظاهر العناية بها:

١ - موقع العدالة في رسائل النور:

يتعيّن لتأكيد ما سبقت الإشارة إليه مجملا في مستهل البحث، عرض النقاط الآتية:

١/١ - العدالة مقصد أساسي من مقاصد القرآن الكريم :

يؤكّد بديع الزمان في النص المؤسس لمقاصد القرآن من خلال رسائل النور أنّ العدالة والعبودية مقصد من المقاصد الأربعة الأساسية للقرآن الكريم(١)؛ ولهذا جعلها الأستاذ بديع الزمان أنّ" العدالة" عمدة من عمد مقاصد رسائل النور، و بهذه الصفة لا تقصر على مطالب العدالة في المسألة الاجتماعية و الاقتصادية، بل تتعدّاها لتكون صبغة عامة للدين وبالتالي نظرة المسلم إلى الكون في جوانبه المادية والمعنوية في إطار مقصد العدالة، فتُرى العدالة في كلّ شيء، في الكلية المقاصد نفسها، وهي بهذه الصفة متمكّنة من كلّ شيء، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، حتى يكاد الكون في عناصر المادية- مهما كان صغيرا- دليلا عليها مرشدا إلى طريقها، وخاصة إذا دخلت العالم بمنطق التفكّر الإيماني، لهذا كانت العدالة في رسائل النور، مطلب أهل القرآن، لأنها طريق الأنبياء، مظاهرها متدلية و متجلية في كل عناصره المادية والمعنوية. وهو ما سنعرضه تفصيلا في الفقرات اللاحقة.

٢/١ – العدالة مطلب طلاب القرآن الكريم:

يؤكّد الأستاذ أن العدالة مقصد أساسي من مقاصد القرآن، و ما دامت كذلك؛فقد كانت ومازالت مطلب طلاّب القرآن الكريم، وهدفهم المنشود في التأسيس النظري للرؤية الكونية التوحيدية من جهة وغاية تصرّفاتهم الاجتماعية من جهة أخرى، في الرؤية الكونية لأن المسلم ينظر إلى الكون وقد طبعت مكوّناته العدالة، أيّدتها العدالة التي جاءت رسالة السماء التي بلّغها الأنبياء عليهم السلام، يظهر هذا الحكم في مقام رده على الذين رموا أهل الإيمان بالرجعية، فيقول رجمه الله: "إنّ لطلاب القرآن وخدّامه إزاء هذه المظالم الفظيعة لهذه الرجعية الوحشية مئات من قوانين القرآن الأساسية من أمثال (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (الأنعام ١٦٤) التي تحقق العدالة الحقة والاتحاد والأخوة. فإطلاق الرجعية على أهل الإيمان الذين يحققون العدل والأخوة، واتهامهم بذلك يشبه... ترجيح محاكم التفتيش على عدالة القرآن الكريم العظيمة(٢).

---

(١) انظر المثنوي العربي ٧٥

(٢) انظر الملاحق ٣٧٤

عندما تكون العدالة التي جاء بها الأنبياء خلفية نظرية أساسية في التعامل مع الكون في مجمل عناصره، لاشك أنّها ستؤسس لرؤية تضبط التفاعل مع العناصر المشار إليها، تطبعها الإيجابية، ذلك أنّها إضافة إلى كونها الطابع العام للإسلام؛ فإنّا تحلي سائر المقاصد وتدلّ عليها، كدلالة تلك المقاصد عليها تماما، لهذا فالتوحيد يدل على العدالة كدلالة النبوة والحشر عليها.

٣/١ – العدالة طريق الأنبياء

شيّد الأنبياء عليهم السلام طريق العدالة والفضيلة و السعادة على أسس موضوعية قابلة للمعاينة، أي إنّ الأنبياء هم الذين أرسوا تلك القواعد والأسس، وهم الذين جعل الله لهم الفضل في إشباع حاجة الإنسان الضرورية للعدالة، ذلك أنّ الإنسان محتاج إلى نبي يمسك بميزان العدالة الإلهية التي تستغرق كل مجالات الحياة كبيرها وصغيرها ، و النافذة والمؤثرة في الوجدان والطبائع[٣]

تَعلَّم من الأنبياء المصلحون و العاملون على خطّ الرسالة أسس تلك العدالة والانتظام، و خدموا الفكرة بتذكير أهل الدين وإرشاداتهم إلى طريقها، فمكّنوا للدُّربة على مسالكها، تأسيسا للقدوة الاجتماعية والمجتمعية و من ثمّ الحضارية للدين، كلّ ذلك في إطار رؤية شاملة و متكاملة للعدالة، تبسط ظلالها على عقائدهم و أخلاقهم ومعاملاتهم ونظرتهم للكون والحياة في عناصرها المادية والمعنوية، فاشرأبّت أعناق الأمم الأخرى إلى الأنموذج الذي يحكم أهل الدين الخاتم في فهم مسألة العدالة والتفاعل معها، و قد تعلّقت الهمم بالدين الخاتم بوصفه معبّرا عن مراث الأنبياء السابقين وحافظا لما أمروا بتبليغه من عقائد و أخلاق.

٢ – مظاهر العناية بالعدالة:

بيّن مما سلف تقريره شمول العدالة واستغراقها لكلّ مظاهر الحياة المادية والمعنوية، وقد اصطبغت نظرة الأستاذ للعدالة بالشمول والتكامل المشار إليهما، وهي بهذه الصفة تخوّل لنا النظر إلى العدالة – من منظور رسائل النور – من زوايا مختلفة متنوّعة.

مظهر العدالة و مضامينها وشمولها وتكالمها في تقسيم العدالة إلى إيجابية تقابلها سلبية، وكلاهما مندرج في النظرة الكلية للعدالة، وتجلت الفكرة نفسها في تقسيم

(٣) انظر صيقل الإسلام ١٣٩

العدالة إلى عدالة محضة وأخرى إضافية، وهي بدورها كسابقتها مندرجة في النظرة الكلية للعدالة، ذلك أنّ عقول و قلوب الأشخاص تركّز النظر على المحضة و لكنّها تغفل عن الإضافية، لهذا كان التنبيه إليها تنبيها إلى كلية العدالة في شمولها للقسمين (المحضة والإضافية)، كما رسّخ الفكرة في النظر إلى كلية العدالة من زاوية تقسيمها إلى عدالة منظورة وعدالة مسطورة، فلا تعارض بين العدالة المبثوثة في عالم المادة عن العدالة المتضمّنة في الوحي، فكلاهما يعبّر عن كلية العدالة، وتقسيمات كلية العدالة تؤكّد الشمول والتكامل في النظر إلى مسألة العدالة.

١/٢ - القسمة الأولى: الإيجابية والسلبية

يذكر الأستاذ في القسمة الأولى للعدالة تقسيمها إلى شقين أحدهما إيجابي والآخر سلبي، و هما معا من صور كلية العدالة المشار إليها، ذلك أنّ العدالة وإن كانت أوسع من أن تقصر على التقسيم المشار إليه، إلاّ أنّها لا يمكن أن تكون كلية إن أهملت القسم، لهذا يعدّ هذا التقسيم من مظاهر تناول مسألة العدالة من وجهة كلية، و لركّزنا النظر في القسمة لخلصنا إلى أنّا كلية باعتبارها تشمل مجموع أنواع العدالة المنحصرة أساسا في القسمين المشار إليهما، فالقسم الأول المعبّر عنه بالإيجابي قسيم الثاني المعبّر عنه بالسلبي.كأنّها كلية منقسمة إلى قسمين:

١/١/٢ القسم الإيجابي:

يؤكّد عنوان "الإيجابي" في القسم الأول من القسمة الأولى، أنّه ينظر إلى الجزء الأول من التقسيم من زاوية تعلّق طلبه و حاجة عناصر الكون إليه و التفاتهم إليه، وعنايتهم به، وهو قسم ظاهر قابل للمعاينة في كثير من تفاصيله، يحكم تصرفات البشر في مطالباتهم الاجتماعية، و يكاد حضوره أن يكون مستمرا في حياة الأفراد على تنوّع انتماءاتهم الدينية أو الأيديولوجية، ذلك أنّ مبنى حياة الأفراد نيل الحقوق والسعي إلى جلبها، و يعدّ هذا الأمر من أهم مظاهر العدالة، قاعدته الرئيسة المتحجّج بها عند جميع البشر" إعطاء كلّ ذي حق حقه"، ولا يتوقّف العمل به أو استحضاره على عالم البشر بل يتعداه ليشمل كلّ شيء، فهذا القسم من العدالة محيط وشامل لكلّ ما في هذه الدنيا لدرجة البداهة. يظهر هذا القسم بأنّ ما يطلبه كلّ شيء وما هو ضروري لوجوده وإدامة حياته التي يطلبها بلسان استعداده وبلغة حاجاته الفطرية وبلسان اضطراره من الفاطر ذي الجلال يأتيه بميزان خاص دقيق، وبمعايير ومقاييس معينة، أي أنّ هذا القسم من العدالة ظاهر ظهور الوجود والحياة.

٢/١/٢ القسم السلبي:

تظهر العدالة في قسم عدّه الأستاذ"سلبيا"مؤداه الحرمان من شيء، و هذا الصنف لا ينتبه إلى اندراجه في العدالة إلا بنظر فاحص، ذلك أنّ البشر لا يهتمون بالنظر إلى العدالة أو المطالبة بها إلاّ إذا حرموا حقا، و لا يركّزون النظر في مسألة استحقاق الحرمان من منظور العدالة، و لاشكّ أن القسم السلبي جزء مقوّم من كلية العدالة، فيه تحقيق للعدالة لما تفرضه من تأديب غير المحقين، أي إحقاق الحق بإنزال الجزاء والعذاب عليهم. فهذا القسم وإن كان لا يظهر بتفاصيله الكلية التي لا تغادر جزئية مهما صَغُرَتْ في العلاقات بين البشر في هذه الدنيا، لما في العالمين المادي والمعنوي من إشارات وأمارات تدلّ على هذه الحقيقة.خذ مثلاً سوطَ العذاب وصفعات التأديب التي نزلت بقوم عاد وثمود بل بالأقوام المتمرّدة في عصرنا هذا، مما يظهر للحدس القطعي هيمنة العدالة السامية وسيادتها(٤).

كلية العدالة و شمولها واضح في القسم الإيجابي و قسيمه السلبي، فكلاهما مظهر من مظاهر العدالة، بل يعدّ فقد الثاني فقدا لمعنى العدالة، و تضييع لكليتها، كما أنّ ترسيخ هذه المعاني يكسب الناظر إلى العدالة شمول النظرة وتكاملها، فيتقرر في عقله وقلبه أنْ ليست العدالة في تعلّق الهمم بالمطالبة بنيل القسم الإيجابي، بناء على قاعدة "إعطاء كلّ ذي حق حقه"، بل مقتضى العدالة لأن ينتبه إلى قسيم القسم الإيجابي، المعبّر عنه بعنوان"القسم السلبي"؛فيعمل على تحاشي أن يكون من المشمولين بالاقتصاص منه لاستحقاقه العقوبة و الحرمان، و يتعيّن لتحاشي أن يكون من المندرجين القسم السلبي التحلّي بمجموعة من الخلال، عمدتها الرئيسة الإدراك العقلي و القلبي لكلية العدالة، فليست العدالة أن تكالب بالحقوق و تركّز كلّ النظر عليه، بل قد القسم الثاني أدعة إلى استحضاره في كلية الحضارة، لما يترتّب عليه من حرمان يطال المستحق، ذلك أن البشر مجبولون على أن دفع الضرر المساوي للمصلحة أولى من جلبها، و لا يمكن الإقرار بوجودهما ما لم تتمكّن منّا فكرة كلية العدالة.

٢/٢ - القسمة الثانية: العدالة المحضة والعدالة الإضافية

للبشر ولع بملاحظة ما تعلّقت به مصالحهم و منافعهم العاجلة، حتى أنّهم يختزلون الحاضر و المستقبل في نيلها، و خاصة ما كان عدالة محضة، و ملاحظة

---

(٤) انظر هامش الكلمات ٩١

مجمل العدالة المحضة ميسّر لكل ذي عقل، و لكن إدراك تفاصيل كلية العدالة و خاصة قسيم العدالة المحضة الموسوم بـ"العدالة الإضافية"، فإدراكه بحاجة إلى نباهة معرفية ومنهجية إضافية تتحرّك بالانتساب الإيماني المنضبط بالتفكّر الإيماني و في فضائه تتحرك أيضا، وهي الشروط الإيمانية والمعرفية التي يحتاجها المسلم لإدراك العدالة الإضافية، ذلك أن أسير ذاته وأنانيته، ليس بمقدوره أن يكتشف تلك الحقائق، ولصعوبة إدراكها عرضها الأستاذ بشكل يفي بالغرض.

١/٢/٢ النوع الأول : العدالة المحضة

أستفيد هذا النوع من العدالة من منطوق القرآن الكريم، إذ تفيد الآية الكريمة: [وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى] (الأنعام: ١٦٤)، تفيد العدالة المحضة، أي لا يجوز معاقبة إنسان بجريرة غيره، ويستغل الأستاذ الفرصة للتذكير بخطورة العزوف عن تلك العدالة المطلوبة، فيؤكّد في مطلع الحديث على أنّ القرآن الكريم ومصادر الشريعة الأخرى وآداب أهل الحقيقة والحكمة الإسلامية كلّها تنبهك إلى وجوب التعامل بعدل من هنا كان إضمار العداء للمؤمن والحقد عليه ظلم عظيم، لأنّه إدانة لجميع الصفات البريئة التي يتصف بها المؤمن بجريرة صفة جانية فيه.والأشنع أن يمتد العداء إلى أقاربه وذويه بسبب صفة تمتعض منها، فهو ظلم أعظم، كما وصفه القرآن الكريم بالصيغة المبالغة: [إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ](إبراهيم: ٣٤)، إنّ عداء المؤمن ظلم مبين، من حيث الحياة الشخصية.وبأسلوب تربوي يسترعي الانتباه والتنويه، يلفت الأستاذ النظر إلى دساتير تؤكّد ذلك التفسير والتعليل، يستشف هذا من عبارته: "فإن شئت فاستمع إلى بضعة دساتير هي أساس هذا الوجه من التفسير والتعليل، وبهذا يقرر بعدا تربويا للعدالة المحضة، ذلك البعد الذي له أثر عظيم على المضامين المنهجية والاجتماعية والأخلاقية بصفة عامة.(٥)

ومن تلك المضامين أنّ العدالة المحضة المستمدة من القرآن الكريم، لا تضحي بحياة برئ واحد، ولا تهدر دمه لأي شيء كان، لا في سبيل الأكثرية، ولا لأجل البشرية قاطبة.إذ الآية الكريمة [مَن قَتَل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قَتَل الناسَ جميعاً] (المائدة: ٣٢) تضع سرّين عظيمين أمام نظر الإنسان:

- السر الأول: العدالة المحضة، ذلك الدستور العظيم الذي ينظر إلى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة، فهم سواء في نظر العدالة الإلهية مثلما أنهم

(٥) انظر المكتوبات ٣٣٩-٣٥٠

سواء في نظر القدرة الإلهية. وهذه سنة دائمة. إلاّ أنّ الشخص يستطيع - برغبة من نفسه - أن يضحي بنفسه، من دون أن يُضحّي به قطعاً، حتى في سبيل الناس جميعاً.لأن إزهاق حياته وإزالة عصمته وهدر دمه بإبطال حق الناس جميعاً شبيه بإزالة عصمتهم جميعاً وهدر دمائهم جميعاً.

- السر الثاني: هو لو قتل مغرورٌ بريئاً دون ورع، تحقيقاً لحرصه وإشباعاً لنزواته وهوى رغباته، فإنّه مستعد لتدمير العالم والجنس البشري إن استطاع(٦).

٢/٢/٢ - النوع الثاني: العدالة الإضافية

يحتاج إدراك العدالة الإضافية إلى حضور إيماني ومعرفي، و نظرا لدقتها اختار الأستاذ في تعريف بها التمثيل، فقال رحمه الله :"هي أنّ الجزء يُضَحَى به لأجل سلامة الجميع، فهذه العدالة لا تأخذ حق الفرد بنظر الاعتبار لأجل الجماعة، وإنّما تحاول القيام بنوع من عدالة إضافية من حيث الشر الأهون. ولا يصار إلى العدالة الإضافية إلا إذا كانت العدالة المحضة غير قابلة للتطبيق، لهذا إذا صار إليها في حال إمكان تطبيق العدالة المحضة وقع الظلم"(٧).

ويواصل الأستاذ أسلوبه المرتكز على التمثيل، فيذكر في سياق توضيح الفرق بين العدالة المحضة والعدالة الإضافية مثالا مفاده ما يأتي:

إنّ حق الشخص البريء الواحد لا يبطل لأجل الناس جميعاً، أي أنّ حقه محفوظ، وهذا المعنى هو الذي تشير إليه الآية الكريمة ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: ٣٢) فلا يُضحى بفردٍ واحد لأجل الحفاظ على سلامةٍ الجميع، إذ الحق هو حق ضمن إطار الرحمة الإلهية، فلا يُنظر إلى كونه صغيراً أو كبيراً، لذا لا يُفدى بالصغير لأجل الكبير، ولا بحياة فرد وحقه لأجل سلامة جماعة والحفاظ عليها، إن لم يكن له رضا في الأمر.أما إذا كانت التضحية برضاه ورغبة منه فهي مسألة أخرى.

لهذا فالعدالة الإضافية تفدي بالجزء لأجل الكل بشرط أن يكون لذلك الجزء المختار الرضا والاختيار صراحة أو ضمناً، إذ عندما يتحول "أنا" الإفراد إلى"نحن" الجماعة ويمتزج البعض بالبعض الآخر مولداً روح الجماعة، يرضى الفرد أن يضحي بنفسه للكل(٨).

---

(٦) الكلمات ٨٦٢

(٧) المكتوبات ٦٧

(٨) انظر صيقل الإسلام ٣٣٧

تؤكّد القسمة الثانية (المحضة/الإضافية) كلية النظر إلى العدالة، ويقرر أن الأصل اعتبار العدالة المحضة، و لا يكون للعدالة الإضافية اعتبار إلاّ إذا تعذّر اعتبار المحضة، و يشترط في عدّها رضا و قبول من تعلّقت به، و لهذا فالعدالة المحضة خاصة بأولئك الذين تحوّل عندهم"أنا"الإفراد إلى "نحن" الجماعة، فوقع في نفوسهم وعقولهم وقلوبهم التمازج بسائر أفراد الجماعة، فكان هذا النمط من أفراد الجماعة معبّرا عن إرادة الجميع وحاملا لهمّهم و آمالهم وآلامهم، و هي صفة تجعل التضحية لأجلهم في سبيل الله منتهى العدالة، و لهذا لا يمكن أن تقوم العدالة الإضافية على الإكراه سواء بالقوة الباطشة أو بالترغيب المرتبط بعالم الدنيا، كما لا يمكن أن يحقق المرغوب الترهيب، فالعدالة الإضافية تنبيه للتلاحم بين أفراد المجتمع، تلاحم يفضي إلى التمازج بين الأفراد، يؤسس لمجتمع الإيمان القائم على القاعدة المعبّر عنها بحديث المصطفى – ρ: مثل المؤمنين في توادهم و تراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحُمَّى"[٩]

٣/٢ ـ القسمة الثالثة: العدالة المنظورة والعدالة المسطورة

ورد القسم الثالث تأكيدا لشمول و تكامل نظرة رسائل النور للعدالة، فالحديث عن عدالة منظورة متوافقة مع عدالة مسطورة، فإذا كانت العدالة المنظورة عدالة مطلقة تتجلى في الكون، عدالة جارية في مكونات الكون وهي نابعة من التجلي الأعظم لاسم "العدل" إنّما تدير موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل[١٠]، و تربيهم عليه بواسطة العدالة المنظورة من خلال مشاهدات موازين العدل مبثوثة في الكون، وترسيخا لهذه المعاني تربيهم بالأوامر والنواهي الواردة في العدالة المسطورة، فتتوافق المنظورة مع المسطورة لتمكين العدالة من قلوب وعقول المتلقين، ويعرف الأول في سياق هذه الفقرة بالعادلة المنظورة بينما يعرف الثاني بالعدالة المسطورة أي التي أخبر بها الأنبياء عليهم السلام ولاسيما خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

١/٣/٢ ـ النوع الأول: العدالة المنظورة

الناظر ببصيرة إلى الكون في عناصر المادية والمعنوية يحكم دون تردد بأنّ في الكون عدالة مطلقة، تلك العدالة هي سنن الله الجارية في الكون، وهي دستور إلهي

---

(٩) أخرجه مسلم و أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(١٠) انظر اللمعات ٥٢٦

شامل تدور رحى الموجودات عليه لا يفلت منها شيء[١١]، إنّها عدالة مطلقة كلّ عضو من الكائن الحي في موضعه اللائق به، وتنسقه بموازين دقيقة حساسة - ابتداء من ميكروب صغير إلى كركدن ضخم، ومن نحل ضعيف إلى نسر مهيب، ومن زهرة لطيفة إلى ربيع زاهٍ بملايين من الأزهار.. و تراها تمنح كل عضو تناسقا لا عبث فيه، وموازنة لا نقص فيها، وانتظاماً لا ترى فيه إلاّ الإبداع، كل ذلك ضمن جمال زاهر وحسن باهر حتى تغدو المخلوقات نماذج مجسمة للإبداع والإتقان والجمال والعدالة[١٢] ...

ومن تلك المخلوقات التي تمثّل الأمر الإلهي السماوات والأرض، إذ تبيّن أنّها كالجنود المرابطين في معسكرين، كما أنهم يهرعون إلي أخذ مواقعهم وتسلم أسلحتهم بدعوة من القائد وبنفخة من بوق، كذلك السماوات والأرض... بل نرى هذه العظمة والطاعة في كل ربيع إذ يُحشَر ما في معسكر الأرض من جنود وينشَرون بنفخة من بوق مَلَك الرعد.. فبناء على التحقيقات السابقة، لابد أن تلك الرحمة والحكمة والعناية والعدالة والسلطنة السرمدية ستحقق أبعادها وغاياتها في هذه الدنيا ولها امتداد في دار أخرى [١٣]، نبيّن حقيقتها في العدالة المسطورة.

٢/٣/٢ - النوع الثاني: العدالة المسطورة

تهب العدالة المسطورة التي جاء بها النبيρ كل ذي حياة حق الحياة، وتنصّب له موازين عدالة فائقة، فجزاء الحسنة حسنة مثلها، وجزاء السيئة سيئة مثلها.. وفي الوقت نفسه تُشعر قوتها و سرمديتها، بما تنزل من عذاب مدمر على الطغاة والظالمين منذ عهد آدم عليه السلام. فكما لا تكون الشمس دون نهار، فتلك الحكمة الأزلية، وتلك العدالة السرمدية لن تتحققا تحققاً كلياً إلاّ بحياة أخرى خالدة لذا لن ترضيا أبداً ولن تساعدا بحال من الأحوال على نهاية لا عدالة فيها ولا حكمة ولا إحقاق حق، تلك هي الموت الذي لا بعث بعده، والذي يتساوى فيه الظالمون العتاة مع المظلومين البائسين، فلابد إذن أن تكون وراءه حياة أخرى خالدة كي تستكمل الحكمة والعدالة حقيقتهما[١٤] .

---

(١١) انظر اللمعات ٥٢٥
(١٢) الشعاعات ٢٦٤
(١٣) الشعاعات ٢٦٨
(١٤) الشعاعات ٢٦٤

ومما سبق تقريره يتأكّد أن العدالة تقتضي الحشر بالضرورة، إذ لاشك في مجيء الآخرة، بل إنّ عدم مجيئها محال في ألف محال، حيث إنّ عدمها يعني: تبدّل "الرحمة" التي هي في منتهى الجمال قسوة في منتهى البشاعة، وتحوّل كمال "الحكمة" إلى نقص العبث القاصر وغاية الإسراف، وانقلاب "العناية" التي هي في منتهى الحسن واللطف إلى إهانة في منتهى القبح والمرارة، وبهذا تغيّر "العدالة" التي هي في منتهى الإنصاف والحق إلى ظلمات في أشد القسوة والبطلان، زيادة إلى ما سلف فإنّ عدم مجيء الآخرة يعني أيضا سقوط هيبة السلطنة السرمدية العزيزة وبوار أبهتها وقوتها، وفيه اتهام كمال الربوبية بالعجز والقصور ..

وكل ما سبق ذكره باطل ومحال لا يقبله عقل أي إنسان مهما كان، وهو الممتنع والخارج عن دائرة الإمكان، لأنّ كل ذي شعور يعلم أن الله سبحانه قد خلق هذا الإنسان في أحسن تقويم، ورباه أحسن تربية، وزوّده من الأجهزة والأعضاء - كالعقل والقلب - ما يتطلع به إلى السعادة الأبدية ويسوقه نحوها، ويدرك كذلك مدى الظلم والقسوة إذا ما انتهى مصير هذا الإنسان المكرم إلى العدم الأبدي، ويفهم كذلك مدى البُعد عن الحكمة في عدم البعث الذي يجعل جميع الأجهزة والقوى الفطرية - التي لها آلاف المصالح والفوائد دون جدوى ودون قيمة[١٥]

٣/٣/٢ - تناغم وتوافق المنظور و المسطور من العدالة:

يتخيّل بعض الناس أنه ليس للعدالة الكونية الضامنة لسير الكون وفاعليته صلة بالعدالة المسطورة التي أخبر النبيρ بها، وخاصة في جانبها العقدي، فضلا عن الجوانب التشريعية البحت.

إنّ للعدالة المنظورة أثر عظيم في طلب العدالة المسطورة، ذلك أنّ صدى الحرية والعدالة المتجلية في الكون تبعث الحياة في مشاعرنا المدنية وآمالنا الخامدة ورغباتنا الرفيعة وأخلاقنا الإسلامية الحميدة، حتى كأن الكرة الأرضية وما فيها مجذوبة جذبة المولوي (على قول مولانا جلال الدين الرومي) بفعل تلك العدالة التي يتعدى مفعولها إلى الأمة فتهيّجها جميعا ويهزّها هزّ المجذوب[١٦] على تمثّل العدالة والسير وفق سنن خالقها فيها، من هنا كان التوافق جليا بين مظهري العدالة المنظورة والمسطورة.

فمثلا إن وجود جهنم وعذابها الشديد لا ينافي قطعاً العدالة الحقيقية، ولا الحكمة

---

(١٥) انظر الشعاعات ٢٦٨

(١٦) انظر صيقل الإسلام ٤٦٦

الموزونة التي لا إسراف فيها، ذلك أنّ العدالة في حقيقة الأمر لا تتجزّأ، لها تجلّياتها في الآيات المنظورة والآيات المسطورة، لهذا فإنّ الرحمة والعدالة والحكمة تتطلّب وجود جهنم وتقتضيه، لأنّ قتل حيوان افترس مائة من الحيوانات أو إنزال عقاب بظالم هتك حرمات ألفٍ من الأبرياء، هو رحمة بآلاف الأضعاف للمظلومين من خلال العدالة.

وإنّ إعفاء ذلك الظالم من العقاب أو التجاوز عنه، وترك ذلك الحيوان الوحشي طليقا، فيه ظلم شنيع وعدم رحمةٍ لمئات المساكين بمئات الأضعاف، إزاء رحمة في غير موضعها.ومثل هذا أيضا، الكافر المطلق - الذي يدخل سجن جهنم - فإنّه بكفره ينكر حقوق الأسماء الإلهية الحسنى، أي يتعدى على تلك الحقوق ..وبتكذيبه لشهادة الموجودات - الشاهدة على تلك الأسماء - يتعدى على حقوقها أيضا.. وبإنكاره للوظائف السامية للمخلوقات - وهي تسبيحاتها تجاه الأسماء - يتجاوز على حقوقها..

ومن مظاهر التفاعل الإيجابي مع العدالة الاستجابة لنداء العبودية المنسجم مع عبادات سائر المخلوقات، لهذا كان جحود أنواع العبادات التي تؤديها المخلوقات تجاه تظاهر الربوبية و الألوهية - وهي غاية خلقتها وسبب من أسباب وجودها وبقائها - تعديا صارخا على حقوق جميع المخلوقات، لذا فالكفر جناية عظيمة وظلم شنيع تتجاوز بشاعته كل حدود العفو والمغفرة، فيحق عليه إذن تهديد الآية الكريمة: [إن الله لا يغفر أن يُشرَكَ به].(النساء: ٤٨)، بل إنّ عدم إلقاء مثل هذا الشخص في جهنم رحمةً به هو أمر ينافي الرحمة منافاة كلية في حق هذه الأعداد الهائلة من المخلوقات والكائنات التي انتهكت حقوقها.

وهكذا مثلما يطالب أصحاب الدعاوى بوجود جهنم، فإن عزة جلال الله وعظمة كماله سبحانه تطلبانها قطعا.

نعم، إذا قال سفيه أو شقي عاص لحاكم عزيز للبلاد: "إنّك لا تستطيع أن تقذفني في السجن ولن تقدر على ذلك أبدا". متجاوزاً حدّه ومتعدّيا على عزّة ذلك الحاكم وعظمته، فلابدّ أن ذلك الحاكم سينشئ سجنا لذلك السفيه المتعدي حتى لو لم يكن هناك سجن في البلاد. كذلك الأمر في الكافر المطلق، فإنّه بكفره يتعدى بشدّة على عزّة جلاله سبحانه، وبإنكاره يتحدّى عظمة قدرته، وبتجاوزه يمسّ كمال ربوبيته، فإن لم يكن هناك حتى تلك الأسباب الموجبة وتلك المبررات الكثيرة والحكم العديدة

والوظائف الكثيرة لجهنم ولوجودها، فإن خلق جهنم لمثل هؤلاء الكفار وإلقاءهم فيها هو من شأن تلك العزة وذلك الجلال.

٤ - العلاقة بين مقصد العدالة و سائر مقاصد رسائل النور:

بيّن مما سلف بيانه أنّ للعدالة حضورا قويا وظاهرا في سائر المقاصد، فهي ليست قضية منقطعة الصلة بين سائر المقاصد، بل استحضار منزلتها فيها مبعث فاعلية تلك المقاصد في قلب و عقل المسلم، ذلك أن رسائل النور تجعل من العدالة مقصدا متجليا في سائر المقاصد.

٤/ ١ -العدالة والعبودية في العقائد

نحاول من خلال هذه الفقرة التأكيد على الربط بين العدالة والعبودية في فكر بديع الزمان، وتأكيدا لربط فكرة العدالة بالعبودية يذكر الأستاذ المسألة موضّحا من خلال حديثه المسهب –وظيفيا- عن الكفر، فيقول-رحمه الله-: "ثم إن ماهية الكفر نفسها توحي بجهنم، إذ كما أن ماهية الإيمان إذا تجسمت يمكن أن تبني بلذائذها ونعيم جمالها جنة خاصة في وجدان الإنسان وقلبه، هي جنة مصغرة تومئ وتخبر عن جنة الخلد التي تنتظره في الآخرة، كذلك الكفر - ولاسيما الكفر المطلق - والنفاق والردة فيه من الآلام والعذاب والظلمات المرعبة بحيث لو تجسمت وتأصلت في نفس صاحبها كونت له جهنمه الخاصة به[١٧]، وفي ذلك أظهر الأسس الفكرية المؤسسة والمؤصّلة للعدالة التي هي التوافق مع سنن الله في الخلق، ومن ثمّ كان تمثّلها في جانبها المسطور إضافة إلى المنظور مسلكا مؤسسا لعدالة القوانين المعبّرة عن آمال الأمّة و آلامها، و هي من قبيل التذكير بها، و هي في الوقت نفسه تجلّ من تجليات الله سبحانه وتعالى.[١٨]، فللعدالة حضور بيّن في مختلف مضامين المقاصد في رسائل النور.

تعدّ العدالة دليلا مؤسسا للتوحيد والرسالة والنبوة والحشر، وهي في ذات الوقت مظهر من مظاهر المقاصد الثلاثة الآنفة الذكر (التوحيد، النبوة، الحشر)، من هنا كان للعدالة تجليات في المقاصد أولا وفي الآفاق والأنفس ثانيا، و في ذكر تلك التجليات أظهر برهان و أسطعه.

---

(١٧) انظر الشعاعات ٢٨٧٢٨٨

(١٨) انظر السيرة الذاتية ٣٣٨

١/١/٤ - العدالة والمقصد الأول(التوحيد):

يتناول التأسيس للتوحيد من خلال العدالة من زاويتي الوجود والعدم، فالأولى فعل إيجابي من شأنه أن يتولى بيان العناصر التي تقيم أصله وتحافظ على حضوره، والثانية فعل سلبي من مهامه الأساسية صد العناصر التي من شأنها التشويش على التوحيد أو تأخير تمكينه من القلوب والعقول.

١/١/١/٤ العدالة ودورها في التمكين للتوحيد من جانب الوجود:

التمكين للتوحيد نظر في كثير من صوره إلى العدالة المتجلية في الكون والمتدلية كالثمار المقتطفة من شجرة الحياة، تظهر العدالة كفعل مؤسس للتوحيد في رسائل النور، إذ تمثّل جزء من مظاهر الربوبية، وهي مبنى جريان الكون وحمايته وديمومته وسريان فوائده المنتظرة في صالح الإنسان أو الأشياء، وفي كل ذلك أكبر براهين وأدلّة التوحيد.

التوحيد الذي نشاهد براهينه الساطعة القاطعة في العدالة المبثوثة في هذا الكون، تلك العدالة التي تعبّر عن عادة الربوبية الجارية في الكون [١٩]

يقول الأستاذ في تأكيد تلك المعاني: "إنّنا نشاهد بأعيننا في هذا الكون أنّ من عادة الربوبية الجارية في كل آن بالعدالة والحكمة والعناية، حماية الأبرار وتأديب الكذابين الفاسدين نشاهدها ضمن تصرّفاته المنتظمة جل جلاله"[٢٠]

يعدّ النظام المبثوث في الكون أكبر دليل مؤسس للتوحيد، ومبنى ذلك النظام العدالة وهي بدورها أكبر دليل على إثبات المراد، فهي تمثّل بالنسبة للتوحيد حجّة ودليلا ومطلبا ومقصدا في ذات الوقت، يتجلى هذا الأمر في "أنّ الحاكم الحكيم والعليم الرحيم الذي كتب هذا الكون بشكل كتاب، حتى سجّل تاريخ حياة كلّ شجرة في كلّ بذر من بذورها، ودوّن وظائف حياة كل عشب ومهام كلّ زهر في جميع نواها. وكتّب جميع حوادث الحياة لكلّ ذي شعور في قواه الحافظة الصغيرة كحبّة الخردل. واحتفظ بكلّ عمل في ملكه كافة وبكل حادثة في دوائر سلطنته بالتقاط صورها المتعددة، والذي خلق الجنة والنار والصراط والميزان الأكبر لأجل تجليات وتحقق العدالة والحكمة والرحمة التي هي أهم أساس للربوبية"[٢١] ..

---

(١٩) انظر الشعاعات ٦٦٧

(٢٠) انظر الشعاعات ٦٦٧

(٢١) الشعاعات ٢٩٩

والشواهد على إثبات تلك الحقيقة وتثبيتها أكبر من أن تحصى، بحيث تبلغ حد الكثرة الكاثرة من المشاهد السارية على العوالم السيّارة المتجددة[٢٢]

نرى في العالم عدالة تجليها حكمة عامة عالية، بشهادات رعاية المصالح والفوائد في كل شيء، وبدلالات الانتظامات والاهتمامات وحسن الصنعة في جميع المخلوقات، فهذه الحكمة الحاكمة في سلطنة الربوبية، تقتضي تلطيف المطيعين الملتجئين إلى جناحها.. كما تدل شهادات وضعه كل شيء في الموضع اللائق، وإعطاء كلّ ذي حق حقه الذي يستعد له، وإسعاف كل ذي حاجة حاجته التي يطلبها - لوجوده أو حفظ بقائه - وإجابة كل ذي سؤال سؤاله. و بالخاصة: إذا سئل بلسان الاستعداد أو بلسان الاحتياج الفطري أو بلسان الاضطرار.. فهذه العدالة تقتضي محافظة حشمة مالكيته، وربوبيته، بمحافظة حقوق عباده في محكمة كبرى، مع أن هذه الدار الفانية أقل وأحقر وأضيق وأصغر من أن تكون مظهراً لحقيقة تلك العدالة، فلابد حينئذ لهذا الملك العادل والرب الحكيم ذي الجمال الجليل والجلال الجميل من جنة باقية وجهنم دائمة[٢٣].

٢/١/١/٤ - العدالة ودورها في صيانة التوحيد من جانب العدم:

النظر إلى العدالة من زاوية دورها في صد العناصر الملوّثة للبيئة الفطرية السليمة، يؤكّد أنّ لها منزلة عظيمة في صيانة الإيمان من كلّ ما من شأنه أن يعدمه أو يضيّع وظيفته الاجتماعية، في إطار هذه الملاحظة يمكن أن نستوعب اهتمام الأستاذ النورسي بمقارعة الكفر والتنبيه إلى خطورته الفكرية والتربوية والحضارية، فسعى جاهدا إلى المرافعة عن التوحيد من خلال المرافعة عن الإيمان، وذلك بصد مؤامرات الكفر والإلحاد، وبهذا الصدد ينبّه بديع الزمان في أسلوب واضح إلى خطورة ذلك النوع من الأفكار من جهة، ويلخّص في ذات الوقت مهمّته الأساسية في حماية الإيمان من شيوع الكفر من جهة أخرى، فيقول - رحمه الله -:" رسائل النور ... تقوم بتحطيم الكفر المطلق - الذي أسفله الفوضى(مظهر ضياع العدالة) وأعلاه الاستبداد المطلق (مظهر تضييع العدل) - وتفتيته وردّه على أعقابه.وأكبر برهان على ذلك هو رسالة "الثمرة" التي هي بمثابة دليل واحد من بين مائة حجة ودليل على أنّ رسائل النور تسعى لتأسيس الأمن والنظام والحرية والعدالة[٢٤]...

(٢٢) انظر الشعاعات ٣١٣
(٢٣) المثنوي العربي النوري ٩١
(٢٤) انظر الشعاعات ٣٣٤

٢/٤ -العدالة و المقصد الثاني(النبوة و الرسالة:

يؤكّد الحديث عن الصلة بين العدالة والنبوة، حضور العدالة في النبوة، بل هي خاتم (طابع) صدقها، و برهان حجيتها، وقد كانت تلك العلاقة واضحة بيّنة في رسائل النور، نستشفها فيما يأتي:

١/٢/٤ - العدالة والنبوة:

النبي محمدρ دال على الله معرّف بتوحيده، برهن على تلك الحقائق بحجج موافقة لأحكام العقول الفطرية، كما يدلّ على ذلك بما جاء به من أحكام موافقة للفطرة السليمة تضمّنتها رسالته التي كلّف بتبليغها عن الله، ليس هذا فحسب، بل يعدّ أظهر حجج العدالة الإلهية في الأرض سواء بتصرّفاته أو بمقتضى ما جاء به من قواعد وأصول وأوامر ونواهي، لهذا فهو كنبي حجّة، كما أنّ رسالتها نفسها حجّة إضافية.

من مظاهر تلك العدالة وبمقتضى أفعال الله الرحمانية أنزل القرآن المعجز البيان على محمّدρ وإظهار أنواع المعجزات الكثيرة البالغة نحو ألف معجزة على يديه.. وحمايته له تحت جناح رأفته الشفيقة في كل حالاته، بل في أخطر أوضاعه حتى حمايته بالحمام والعنكبوت.. وتوفيقه توفيقاً معززاً في مهامه.. وإدامة دينه بجميع حقائقه.. وتتويج هامة الأرض والبشرية بإسلامه.. وإعلاء مقامه وشرفه إلى أرفع مقام وأشرفه.. وتفضيله على الموجودات كافة بمنحه مقاماً مرضياً مقبولاً ودائماً يفوق أفاضل الإنسانية.. وإعطائه شخصية تحمل أجمل الخصال الحميدة الرفيعة باتفاق الأولياء والأعداء حتى جعل خمس البشرية من أمّته.. كل ذلك يشهد شهادة صادقة قاطعة على صدقهρ ورسالته[٢٥].وكلّ ذلك شاهد على أنّه نبي العدالة حمّل رسالة عدالة توافقها عدالة المظاهر الكونية، فتكاملت شهاداتان في العدالة المطلقة.

٢/٢/٤ - العدالة والرسالة:

تدلّ أفعال ربوبيته جلّ جلاله على أنّه متصرّف هذا العالم ومدبّر شؤونه، كما تدلّ أيضا على أنّه جعل رسالة محمّد ρ شمساً معنوية للكون، ... بدّد بها جميع الظلمات، مظهراً بها حقائق الكون النورانية.. وأبهج ذوى الشعور قاطبة بل الكون بأسره ببشارة الحياة الباقية.. وجعل دينه أيضاً فهرس كمالات جميع عباده المقبولين، ومنهجاً قويماً لأفعال العبودية.. وجعل الحقيقة المحمدية وهي شخصيته المعنوية مرآة جامعة لتجليات ألوهيته بدلالة القرآن الكريم.. بل جعله ينال - علاوة على الحقائق

---

(٢٥) الشعاعات ٦٦٧

من أمثال حسنات أمته كافة في كل يوم طوال أربعة عشر قرناً.. وبعثه إلى البشرية وأناط به وظائف جليلة سامية.. وجعله أحسن قدوة وأعظم مرشد وأكرم سيّدٍ للبشرية قاطبة، بدلالة آثاره في الحياة الاجتماعية والمعنوية والبشرية، وجعل البشرية محتاجة إلى دينه وشريعته وحقائقه التي أتى بها في الإسلام حاجتها إلى الرحمة والحكمة والعدالة والغذاء والهواء والماء[٢٦]

وتعدّ الشريعة من أبرز ما جاءت به الرسالة النبوية، تنسحب عليها الصفات التي تحلّت بها الرسالة نفسها، لهذا كانت الشريعة بدورها مظهرا من مظاهر العدالة.

٣/٢/٤ - الشريعة مظهر العدالة:

رسمت الشريعة طريق السعادة بل هي نفسها سبب في جلب السعادة، ذلك أنّها هي العدالة المحضة والفضيلة، لهذا انتهى الأستاذ النورسي إلى تبني التضحية من أجل الشريعة، إذ يصرّح بأنّه لو كان له ألف روح لكان مستعدا لأن يضحي بها في سبيل حقيقة واحدة من حقائقها، بشرط أن تكون الشريعة الحقة، وليست كتلك التي يطالب بها المتمردون [٢٧].لأنّ للشريعة دور في تأسيس إطاعة قانون العدالة الإلهية وامتثال النظام الرباني إضافة إلى دورها في إدامة تصوّر عظمة الصانع في القلوب وتوجيه العقول. والإنسان يحتاج إلى تلك الإدامة من حيث هو إنسان لأنّه مدنيّ بالطبع.. فيا ويلَ من تركها ويا خسارة من تكاسل فيها، ويا جهالة من لم يعرف قيمتها، فسحقاً وبعداً وأفّاً وتفّاً لنفسِ مَن لم يستحسنها[٢٨].

٣/٤ - العدالة والمقصد الثالث(الحشر أو المعاد:

يلاحظ القارئ أن للعدالة حضورا مشهودا في الحشر، و لعلّ فيما سبقت الإشارة إليه بيان مجمل ضرورة أن تكون العدالة متجلية ومتدلية عن عقيدة المعاد، المقصد الثالث من مقاصد القرآن الكريم، كما خلص إليه الأستاذ بديع الزمان، فعرض المسألة من زاوية مختلفة تؤكّد في مجملها أهمية مقصد العدالة في مقصد الحشر (المعاد).

١/٣/٤ - عقوبة الظالم مظهر من مظاهر العدالة:

تقتضي العدالة وجود الآخرة، فكما أنّ الدلائل والحجج التي تثبت صدق القرآن الكريم بل جميع الكتب السماوية، وأنّ المعجزات والبراهين التي تثبت نبوة حبيب الله بل الأنبياء جميعهم، تثبت بدورها أهمّ ما يدعون إليه، وهو تحقق الآخرة والدلالة

(٢٦) انظر الشعاعات ٦٦٧

(٢٧) صيقل الإسلام ٤٤

(٢٨) انظر إشارات الإعجاز ٥٣

عليها.كذلك فإنّ أغلب الأدلة والحجج الشاهدة على وجوب واجب الوجود ووحدته سبحانه، هي بدورها شاهدة على دار السعادة وعالم البقاء التي هي مدار الربوبية والألوهية وأعظم مظهر لهما، وهي شاهدة على وجود تلك الدار وانفتاح أبوابها، لأنّ وجوده سبحانه وتعالى، وصفاته الجليلة، وأغلب أسمائه الحسنى، وشؤونه الحكيمة، وأوصافه المقدّسة -أمثال الربوبية والألوهية والرحمة والعناية والحكمة والعدالة- تقتضي جميعها الآخرة وتلازمها، بل تستلزم وجود عالم البقاء بدرجة الوجوب وتطلب الحشر والنشور للثواب والعقاب بدرجة الضرورة أيضاً[٢٩].

٢/٣/٤ - الآخرة وتجلي العدالة:

الإيمان بالعدالة المحضة المطلقة يحافظ على الخير المبثوث في الكون ويدفع إلى الاستزادة منه، أمّا إنكار تلك الحقيقة فسيكون سببا في فعل الشرور و التحريض على فعله ومدافعة الخير والتحريش بأهله، ذلك أنّ تجلّي الحق والعدالة المحضة سيكون في الآخرة، وهو ميدان تغلّب الحسن والحق والخير الشخصي والعام، والجزئي والكلي، وهناك ستكون المحكمة الكبرى التي تجازي البشر ويكافأ الإنسان بما يوافق وينسجم مع استعداداته[٣٠].

الآخرة كما مرّ معنا مظهر من مظاهر العدالة وحجّة إضافية لها، ومن امتدادات ذلك كانت عقوبة الظالم مظهرا من مظاهر العدالة، لأنّ العدالة والحكمة الإلهيتان اللتان شهدت وتشهد عليهما الكائنات منزهتان عن الظلم، وهذا يقتضي وجود مجمع آخر ليرى الظالم جزاءه والمظلوم ثوابه، فتتجلى العدالة الإلهية في الموقف من الأول كما تتجلى من الموقف من الثاني، لأنّنا كثيراً ما نرى الظالم الفاجر الغدّار في غاية التنعم، ويمرّ عمُره في غاية الطيب والراحة. ثم نرى المظلوم الفقير المتدين الحسن الخلق ينقضي عمره في غاية الزحمة والذلة و المظلومية، ثم يجئ الموتُ فيساوي بينهما. وهذه المساواة بلا نهاية تُري ظلماً، لهذا كان لا بد من عقوبة الظالم وإنصاف المظلوم تحقيقا للعدالة[٣١]

ثانيا - أثر العدالة في الرسائل على المتلقين لها:

يتجلى أثر العدالة في رسائل النور على الرسائل نفسها من جهة المضمون

(٢٩) انظر الشعاعات ٢٣٤
(٣٠) انظر صيقل الإسلام ٥٤
(٣١) انظر إشارات الإعجاز ٦٦

الفكري والتربوي والاجتماعي لرؤية العدالة كمقصد من مقاصدها، فللرؤية مضمون فكري و تربوي، نسعى إلى تجلية مضامينه في الفقرات اللاحقة:

١ - المضمون الفكري لرؤية العدالة:

المطلوب أن تتحوّل معرفة أنّ العدالة مقصدا من مقاصد القرآن الكريم إلى واقع معيش، يؤكّد التحقُّق بمعانيه ومراميه في شعاب الحياة، فتيسّر رؤية العدالة في الكون الاستيعاب المجمل للنظام المبثوث فيه، ذلك النظام الذي يحكمه بشكل يسع بشكل واضح مشمولات الإدراك البشري من جهة، ويسمح بفهم المستعصي عن الاستيعاب في إطار تلك الرؤية الشاملة وإن عسر فهمه في إطاره الجزئي من جهة أخرى.

استيعاب تلك المعاني يسمح بقبول إطار نظري قطعي متكامل لتحليل الظواهر الجزئية أو الكلية، إذ النظر إلى الكون من زاويتي التوافق بين العدالة المنظورة والعدالة المسطورة، يسمح بالخلوص إلى نتيجة هامة، مفادها:"إنّ الحاكم على الدهر وعلى طبائع البشر إلى يوم القيامة هو "حقيقة الإسلام" التي هي تجلّي العدالة الأزلية في عالم الكون، والتي هي الإنسانية الكبرى... إذ يعني هذا إسناد العجز التام إلى قدرة القدير المطلق، و تنسب العبث والضياع إلى الحكمة البالغة للحكيم المطلق، وإرجاع القبح المطلق إلى جمال رحمة الرحيم المطلق، وإسناد الظلم المطلق إلى العدالة التامة للعادل المطلق، أي إنكار كلّ من الحكمة والرحمة والعدالة الظاهرة المشاهدة، إنكارها كلياً من الوجود، وهذا من أعجب المحالات وأشدّها سخفاً وأكثرها بطلاناً"(٣٢).

النظر في ألفاظ القرآن الكريم يؤكّد تلك المعاني، يشير إلى هذا المعنى قول بديع الزمان:"قلت:لما أُنزل (بسم الله) لتعليم العباد كان " قُلْ" مقدَّراً فيه. وهو الأُمّ في تقدير الأقوال القرآنية. فعلى هذا يكون في "قل"إشارة إلى الرسالة.. وفي (بسم الله) رمز إلى الألوهية.. وفي تقديم الباء تلويحٌ إلى التوحيد.. وفي (الرحمن) تلميحٌ إلى نظام العدالة والإحسان ..وفي (الرحيم) إيماء إلى الحشر".(٣٣)

٢/١ - العدالة وتبادل ثمرات السعي:

سير الكون وفق ما جعله الله له وفق منطق التسخير، يحتاج إلى تفاعل مجموعة كبيرة عددا من العناصر، ويضبط سيرها العدالة المتجلية في النظام، وأظهر ذلك النظام الإنسان.

---

(٣٢) انظر اللمعات ٥٣٥

(٣٣) انظر إشارات الإعجاز٢٤

خُلق الإنسان ممتازاً ومستثنى من جميع الحيوانات بمزاج لطيف عجيب، أنتج ذلك المزاج فيه ميلَ الانتخاب وميلَ الأحسن وميلَ الزينة، و ميَلاناً فطرياً إلى أن يعيش ويحيى بمعيشة وكمال لائقين بالإنسانية.. ثم لأجل تلك الميول احتاج الإنسان في تحصيل حاجاته في مأكله وملبسه ومسكنه إلى تلطيفها وإتقانها بصنائع جمة لا يقتدر هو بانفراده على كلّها.ولهذا احتاج إلى الامتزاج مع أبناء جنسه ليتشاركوا، فيتعاونوا، ثم يتبادلوا ثمرات سعيهم. لكنّ لما لم يحدد الصانعُ الحكيم قوى البشر الهوية والغضبية والعقلية بحدٍّ فطريّ لتأمين ترقّيهم بزَمْبَرَكِ الجزء الاختياريّ - لا كالحيوانات التي حُددت قواها – حصل انهماك وتجاوز.. ثم لانهماك القوى وتجاوزها - بسر عدم التحديد – تحتاج الجماعة إلى العدالة في تبادل ثمرات السعي.. ثم لأنّ عقل كلّ أحد لا يكفي في درك العدالة احتاج النوع إلى عقل كلّي للعدالة يستفيد منه عقل العموم. وما ذلك العقل إلاّ قانون كليّ[٣٤].

٣/١ - العدالة حاجة نفسية(تسلية قلوب المظلومين):

استيعاب العدالة في إطارها الكلي يسلّي القلوب بما يظهر من القدر الإلهي بحقي العدالة الإلهية وعنايتها ضمن ظلم البشر. وقياساً على هذا، يرى الأستاذ أنّه ما من مصيبة تنزل به إلاّ وتحتها رحمة إلهية، إذ كانت تلك المصائب سببا في انشغال التلاميذ به، وكان من النتائج المباشرة للانشغال به إنقاذ مئات من رسائل النور، ولهذا يخاطبهم الأستاذ قائلا: "يا إخوتي لا تقلقوا عليّ أبداً، حتى أنّني كلّما نويت الدعاء عليهم - بسبب إهانتهم له إهانة شديدة تجرح مشاعري جرحاً أليماً – فإنّ الموت الذي يعدمهم، وتعرّضهم لعذاب القبر الذي هو سجن انفرادي لهم، وما ينتج من تلك الإهانة من المصالح لي والمنافع لخدمتنا.. كل ذلك يحول بيني وبين الدعاء عليهم فأتخلى عنه."[٣٥]

٤/١ - رؤية العدالة يؤسس للتعامل الإيجابي مع الدنيا:

الاقتناع بهيمنة العدالة على الكون، يؤسس للتعامل الإيجابي معه في عناصره المادية والمعوية، ذلك" أنّ كلّ حقيقة من الحقائق تثبت أموراً ثلاثة في آن واحد:وجود واجب الوجود، وأسمائه وصفاته، ثم تبني الحشر على تلك الأمور وتثبته، فيستطيع كلّ شخص من أعتى المنكرين إلى أخلص المؤمنين أن يأخذ حظّه من كلّ

(٣٤) إشارات الإعجاز ١٤٧
(٣٥) انظر الملاحق ٢٨٣

حقيقة، لأنّها تلفت الأنظار إلى الموجودات والآثار، وتقول:في هذه الموجودات أفعال منتظمة، والفعل المنتظم لا يكون بلا فاعل، لذا فلها فاعل.ولما كان الفاعل يفعل فعله بالانتظام والنظام يلزم أن يكون حكيماً عادلاً، وحيث أنّه حكيم، فلا يفعل عبثاً وحيث أنّه يفعل بالعدالة فلا يضيّع الحقوق، فلا بد إذن من محشر أكبر ومحكمة كبرى". (٣٦)

٢ - العزوف عن العدالة وما تسببه من عزلة كونية واجتماعية:

يتجاوز أثر العدالة النواحي الإيجابية المشار إليها، فلا يقصر دورها على ترسيخ المضمون الفكري لرؤية العدالة، وتعليمها لرؤية العدالة أساس لتبادل ثمرات السعي، فضلا عن كونها تحقق إشباع حاجة نفسية (تسلية قلوب المظلومين)، تؤسس للتعامل الإيجابي مع الدنيا، فهي إضافة إلى كلّ ما سلف تدفع أمورا سلبية، وتؤكد أن الميل عن العدالة والعزوف عنها، يسبب تناقضا مع العناصر المادية والمعنوية، فأول مظاهر التناقض مع الكون، والتهيُّؤ لتلقي العذاب المعوي والمادي في الدنيا ثم في الآخرة، فضلا عن كونه من مظاهر تضييع الالتزام بالفضائل الإسلامية، والتي تعدّ أهم مظاهر الالتزام بالعدالة.

٢ / ١ - التناقض مع الكون:

يستشف برهان العدالة من سير الكون وثباته المستمر الهادف، إذ لا يمكن قبول تلك النتيجة الساطعة البيّنة الأشبه بالبديهية، ما لم نقبل بشكل قطعي بوجود العدالة والحكمة البالغة في جميع مظاهر الكون، ولوضوحها يعدّ إنكارها أسطع و أبين تناقض ما بعده تناقض يصل حدّ الجنون أو الغفلة المحكّمة على الأقل، لأنّ إنكارها في غاية الجنون والسفه، لأنّ الربّ السرمدي والسلطان الأبدي أظهر في الكون عدالة عالية غالية مشفوعة بآثار حكمة باهرة ماهرة، وعناية ظاهرة، ومرحمة واسعة جامعة، بدرجة يعرف باليقين مَن لم يكن على عينه غين وفي قلبه رين، أنّه ليس في الإمكان أكمل من حكمته، وأجمل من عنايته، وأشمل من مرحمته، وأجلّ من عدالته، فلو لم تكن في دائرة مملكته - في ملكه وملكوته – أماكن دائمة عالية، ومساكن قائمة غالية، وسواكن مقيمة خالدة، لتكون تلك الأمور مظاهر لتظاهر حقائق تلك الحكمة والعناية والرحمة والعدالة، للزم حينئذٍ إنكار هذه الحكمة المشهودة لذي عقل، وإنكار هذه العناية المبصرة لذي بصيرة، وإنكار هذه الرحمة المنظورة لذي قلب، وإنكار هذه العدالة

(٣٦) الملاحق ٧٣

المرئية لذي فكر، وللزم قبول كون صاحب هذه الأفعال الحكيمة الرحيمة الكريمة العادلة.. حاشا، ثم حاشا!.. سفيهاً لعّاباً وظالماً غدّاراً، فيلزم انقلاب الحقائق[٣٧].

وإنكار العدالة الكونية أو تضليلها لا يختلف عن إنكار وجوب العدالة أو تضليلها في التقاضي بين الناس، يشهد لهذه المعاني قول الأستاذ بديع الزمان: "أما أنتم يا أعداءنا المتسترين ويا أولئك الذين يضللون العدالة في سبيل إرضاء الزندقة ويتسببون في خلق الأوهام الزائفة في أذهان المسئولين في الدولة لينشغلوا بنا دون داع أو سبب.. اعلموا قطعاً، ولترتعد فرائصكم، إنّكم تحكمون على أنفسكم بالإعدام الأبدي وبالسجن الانفرادي الدائم. وأنّ انتقامنا يؤخذ منكم أضعافاً مضاعفة، فها نحن أولاء نرى ذلك ونشفق عليكم. ولا شك أنّ حقيقة الموت التي ظلت تفرغ هذه المدنية مائة مرة إلى المقابر، لابد أن تكون لها غاية ومطلب فوق غاية العيش والحياة.وأنّ محاولة الخلاص من براثن ذلك الإعدام الأبدي هي قضية في مقدمة القضايا الإنسانية، بل هي من أهمّ الضروريات البشرية وأشدّها إلحاحاً".[٣٨]

وإنكار العدالة لا يختلف عن التضليل باسمها أو تضليلها لما يترتّب عليها من ظلم وتأسيس للاستبداد ومناصرته، فقد أظهر الزمان أنّ دولا تسمى داعية الحرية، قد كبّلت بعدد ضئيل من موظفيها المستبدين أكثر أهل الكرة الأرضية، وسيطرت عليهم كأنّهم عدد ضئيل، حتى لم تتركهم يحركون ساكناً، ونفّذت قانونها الجائر عليهم بأقسى صورة من صور الظلم، آخذة آلاف الأبرياء بجريرة مجرم واحد. وأعطت لقانونها الجائر هذا اسم العدالة والانضباط. فخدعت العالم ودفعته إلى نار الظلم.هذه الدول غدت مقتدى ذلك الاستبداد القادم في المستقبل[٣٩]. وفي ذلك أبين صور العزوف عن العدالة .

لقد جاءت تلك الدول باسم العدالة والحرية فأسست للظلم والاستبداد أو على الأقل سكتت عنه، أليس في تصرفاتهم ما يدل بنفسه على نقائض ما رموا إلى إشاعته من حرية وعدالة؟

أين ننزل "إفناء الأبرياء من أطفال وعائلات وشيوخ ومرضى بالقنابل المدمّرة بحجة وجود جندي أو اثنين من جنود الأعداء فيما بينهم..واتفاق أعتى المستبدين من البرجوازيين مع الفوضيين والإرهابيين المتطرفين ...وإهدار دماء ألوف بل ملايين من

(٣٧) انظر المثنوي العربي النوري ٩٩
(٣٨) الشعاعات ٤٣٥
(٣٩) انظر الملاحق ١٢٦

الأبرياء.. والاستمرار في هذه الحرب الضارة للإنسانية جمعاء.. وردّ الصلح والسلام.. لذا فإنّ الإسلام والقرآن الكريم بريئان بلا شك من مثل هذه الحروب المدمرة التي لا تنسجم مع أي قانون كان من قوانين العدالة ولا مع الإنسانية ولا مع أي دستور كان من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق. ولا يتنازلان ولا يتذللان لمعاونة أولئك، لأن فرعونية رهيبة ومصلحية عجيبة تستحوذان فيهم بحيث لا يمدون يد العون إلى القرآن والإسلام بل يحاولون جعلهما آلتين طيعتين في سبيل مآربهم.فلا شك أنّ أحقية القرآن تأبى الاستناد إلى سيوف ظالمين كهؤلاء. بل الفرض على أهل القرآن والواجب عليهم الاستناد إلى قدرة رب العالمين ورحمته بدلاً من الاستناد إلى قوة عجنت بدماء ملايين الأبرياء"(٤٠)

٢ / ٢ ـ العذاب المعنوي والمادي:

يسبب العزوف عن العدالة بمفهومها العام عذابا معنويا ثم ماديا في قابل الأيام، والتاريخ البشري المتكرر يؤكّده، وأظهر شاهد معاصر على ذلك، ما أنزلته العدالة الإلهية بالمدنية الدنيّة التي حاولت إهانة أكبر شاهد على العدالة المنظورة و المسطورة - الإسلام- فأذاقت أهله عذاباً أليماً ومعنوياً؛فأرداها ذلك التصرّف الأرعن درك الوحوش الجاهلين .فلقد أزالت تلك المخاوف المستمرة ملذات وأذواق مدنية أوروبا والإنكليز مائة سنة وطيرت منهم نشوتهم من الرقي والتسلط على رقاب الآخرين ونشوة الاستيلاء عليهم(٤١).

ومن مظاهر ذلك العذاب أيضا، أنّ (الحد) أو (العقاب) عندما يقام امتثالاً للأمر الإلهي والعدل الرباني فإنّ الروح والعقل والوجدان واللطائف المندرجة في ماهية الإنسان تتأثّر به وترتبط به، فلأجل هذا المعنى، يقول الأستاذ بديع الزمان: "أفادتنا إقامة حد واحد طوال خمسين سنة أكثر من سجنكم في كل يوم، ذلك لأن عقوباتكم التي تجرونها باسم العدالة لا يبلغ تأثيرها إلاّ في وهمكم وخيالكم، إذ عندما يقوم أحدكم بالسرقة يَرِد إلى خياله العقاب الذي ما وضع إلاّ لأجل مصلحة الأمة والبلاد ويقول إنّ الناس لو عرفوا بأنّي سارق فسينظرون إليّ نظرة ازدراء وعتاب، وإذا تبيّن الأمر ضدّي ربما تزجّني الحكومة في السجن.. وعند ذلك لا تتأثرُ إلاّ قوته الواهمة تأثراً جزئياً، بينما يتغلب عليه الميل الشديد إلى السرقة والنابع من النفس الأمّارة

(٤٠) انظر الملاحق ٢٠٣
(٤١) الملاحق ١١٤

والأحاسيس المادية – لاسيما إن كان محتاجاً - فلا ينفعه عقابكم لإنقاذه من ذلك العمل السيئ.ثم لأنه ليس امتثالاً للأمر الإلهي فليس هو بعدالة، بل باطل وفاسد بطلان الصّلاة بلا وضوء وبلا توجّه إلى القبلة، أي أنّ العدالة الحقة والعقاب الرادع إنّما يكون إذا أُجْريت امتثالاً للأمر الإلهي وإلاّ فإنّ تأثير العقاب يكون ضئيلاً جداً".(٤٢)

٣/٢ - العدالة مظهر الالتزام بالفضائل الإسلامية:

الحمية الحقة والوفاء الصادق والعدالة الخالصة لا تجري إلاّ على يد إنسان تزيّن قلبه وعقله بالفضائل الإسلامية، ولا يؤدي الغرض تزيّن القلب أو العقل منفردين.بل يجب أن تشملهما معا، وبذلك تجتمع الفضيلة والصنعة، ذلك أنّ الصنعة غير الفضيلة، فقد يقوم الفاسق برعي الأغنام رعياً جيداً، وقد يصلّح شارب الخمر ساعةً بإتقان حين لا يكون سكرانَ، فلم تجتمع فيهما الفضيلة والصنعة، وهو ما يدعوا للأسف حيث يقول رحمه الله:"وا أسفى على ندرة الذين جمعوا النورَين معاً:نور القلب ونور الفكر، أو بعبارة أخرى الفضيلة والصنعة، فهم نادرون لا يكفون لملء الوظائف، فإذاً إما الصلاح وإما المهارة...وإذا تعارضا فالمهارة مرجحة في الصنعة"(٤٣)

يدفع تبني العدالة إلى الجمع بين المهارة والصنعة، فتصبح الأسبقية والأولوية للجمع بين العنصرين، وهذا يفرض تأخير العنصر العرقي (الإثني)، فتمتزج تلك العناصر والقوميات بالإسلام امتزاج جزيئات الماء، إذ تمكين الإسلام من النفوس يسمح له بأن يفعل فعل التيار الكهربائي فيهم.فتمزج العدالة المنصفة المتولّدة من حرارة نور المعارف الإسلامية، وتديم الحرية النيّرة المسترشدة بتربية حقيقة الشريعة.(٤٤) ويؤسس إجراء العدالة للسعادة البشرية في الدنيا والآخرة (٤٥).

الخاتمة

العدالة في رسائل النور مقصد من مقاصد القرآن الكريم وبالتالي عمدة من عمد رسائل النور؛ فقد عدّها من المقاصد الرئيسة الأربعة التي نص عليها مستنبطة من القرآن الكريم، وهي بهذه المنزلة أو الموقع أكبر من أن تقصر على المسألة

(٤٢) صيقل الإسلام ١٢٣
(٤٣) صيقل الإسلام ٣٩٣
(٤٤) انظر صيقل الإسلام ٤٦٢، سيرة ذاتية٨٤
(٤٥) انظر صيقل الإسلام ٥٢٣

الاجتماعية، فهي نظرة شاملة متكاملة، تغطي مجال الحياة بعناصرها المادية والمعنوية، وتشمل البشر وسائر العناصر المحيطة بهم، كما أنّها - وفي الوقت نفسه- وسيلة تربوية فاعلة على بعث العدل و دافعة للالتزام بمقتضاه، و التمكين لفكرة العدل الأخروي، لهذا كانت العدالة حاضرة في مجمل المقاصد الأخرى، فلها ارتباط وثيق بالتوحيد و بالنبوة والحشر، والتمكين لها بهذه المعاني، يجعل أثرها ظاهرا على الفرد والمجتمع، فهي عامل رئيس في بعث الوظيفة الاجتماعية للعدالة في حياة الأفراد، وتسعفهم على التأسيس لمجتمع العدالة، ذلك أنّ لرؤية العدالة مضمونا فكريا متميّزا، يربي على تبادل ثمرات السعي، و يشبع الحاجة النفسية للعدالة، فتسلي معرفتها قلوب المتلبّسين بها المتحقّقين بمعانيها وأبعادها الوظيفية، وهي بهذا المعنى دُربة على تسلية قلوب المظلومين، ودفعهم وغريهم إلى التأسيس للتعامل الإيجابي مع الدنيا، فتستأصل فكرة العزوف عن العدالة في التصورات والتصرفات وما تسببه من عزلة كونية واجتماعية، وتدفع إلى الانسجام مع الكون برفع التناقض معه، ذلك أنّ العدالة في رسائل النور تستوعب كل عناصر الحياة المادية والمعنوية، وتشفي القلوب من العذاب المعنوي والمادي المترتّب على إنكارها والغفلة عنها حين التفاعل مع عناصر الحياة المادية والمعنوية، وبهذا تكون العدالة مظهر الالتزام بالفضائل الإسلامية، فيكون المتديّن بالإسلام الصادق مع الله المستصحب للانتساب الإيماني في شعاب الحياة مشروع عدالة مع عناصر الكون لأنه في تناغم معها، ومشروع عدالة مع نفسه، فتراه مستعملا العدالة فيما استودعه الله من استعداداته، فلا يوظّفها في غير ما جُعلت له، فيكون بهذا متحققا بالعدالة، والتحقّق منها في هذا المستوى يظهر أثرها في شعاب الحياة في التصرفات الفردية وأبعادها الاجتماعية و إضافة إلى التدرُّب الاجتماعي على العدالة، وهذا فضلا عن كونها نظرة شاملة متكاملة للعدالة نفسها، فلا تعزب عنها معرفة أو جزء من الكون أو علاقة من العلاقات الاجتماعية والتربوية فضلا عن الحضارية.